عليه وسلم، لكن لمن يقول؟

قيل: للمشركين؛ لأنهم قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: صِف لنا ربك، أهو من حديد، أو ذهب، أو فضة أو ما أشبه ذلك؛ لأنهم لا يعرفون من الآلهة إلَّا ما نَحَتوه من الأصنام من حجر، أو خشب أو ما أشبه ذلك، فأنزل الله هذه الآية.

أو أن المعنى: قل لليهود الذين قالوا: أُنسب لنا ربك، إلى مَنْ ينتسب؟ فقال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فـ﴿قُلْ﴾: أي: لمن كان من المشركين، أو من اليهود، أو من غيرهم:

﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قيل: إن ﴿هُوَ﴾ ضمير المسؤول عنه؛ أي: قل لمن سألك: ﴿هُوَ﴾ أي: الذي تسألون عنه ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ و﴿ٱللَّهُ﴾ تكون خبر المبتدأ، و﴿أَحَدٌ﴾ الخبر الثاني، وهو بمعنى: المتوحِّد في كل شيء؛ فهو واحد في ربوبيته، وواحد في ألوهيته، وواحد في أسمائه وصفاته.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ جملة اسمية من مبتدأ وخبر، وتفيد: الحصر؛ لتعريف طرفيها.

ومعنى ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: أَجمعُ ما قيل فيه: أنه الكامل في صفاته، الذي تصمَّد إليه جميع مخلوقاته؛ أي: تلجأ إليه، وتحتاج إليه، وهذا بمعنى قول ابن عباس رضي الله عنهما: هو الكامل في علمه، الكامل في سُؤْدَده... إلى آخره.

فجميع مخلوقاته مُفتقِرة إليه في الإيجاد، والإعداد، والإمداد، فالذي أَوْجدها من العدم هو الله تعالى والذي أعدَّها لما خُلقت له هو الله، أعطى كل شيء خلقه ثم هدَى، والذي أمدَّها هو الله عز وجل، فجميع المخلوقات تَصْمِد إلى الله تعالى.

وقال بعض العلماء: إن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو الذي لا جوف له، وهو كذلك، والمعنى واحد؛ لأنه لا يحتاج إلى الطعام، فهو كامل؛ ومن كماله: أنه لا يحتاج إلى الطعام؛ بل هو يُطْعِم ولا يُطْعَم.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ رَدٌّ على الذين ادعوا: أن له ولدًا؛ كالمشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الله! والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله! واليهود الذين قالوا: عُزَير ابن الله! فهو لم يلد، ولا يمكن أن يلد عز وجل؛ لأن الولادة إنما تكون للناقص؛ من أجل أن يبقى نوعُه، فالإنسان ناقص، ولولا التوالد ما بقي؛ ولهذا في الجنة لا يتوالدون؛ لأنهم في غنى عن ذلك؛ إذ إنهم مخلدون أبد الآبدين، فهو لم يلد، ولو وُلِدَ له ولد لاحتاج إلى زوجة.

ومعلوم: أن الله تعالى لا زوجة له؛ بل هو مُنزَّه عن ذلك؛ ولهذا قال الله تبارك وتعالى في سورة الأنعام: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٠١] فهو الخالق، ولا يحتاج إلى أن يكون منه ولد، يقول: كن فيكون، فعيسى مخلوق، وعزير مخلوق، والملائكة مخلوقون وليسوا أولادًا له.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأنه الأول الذي ليس قبله شيء، ولو وُلِد لكان والده قبله، وهذا يتنافى مع كونه الأول الذي ليس قبله شيء، ولو وُلِد لَلَزِم أن يكون له خالق، والله تعالى خالق كل شيء، وإذا انتفت الولادة بأنه ليس والدًا، ولا مولودًا فهل أحد يكون مكافئًا له بأسمائه وصفاته، وقوته وسلطانه؟

الجواب: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فتبيَّن: أنه سبحانه وتعالى منزه عن هذا كله؛ لكمال غناه عن كل شيء، وهذا ربَّما يكون من فروع قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾؛ حيث قيل: إنه الكامل في صفاته، الذي تَصمِد إليه جميع مخلوقاته؛ ولهذا كانت هذه السورة سورةً عظيمة، تعدِل ثلث القرآن، لكنها لا تُجزئ عنه؛

ولهذا لابُدَّ أن يقرأ الإنسان كل القرآن، فهذه السورة ليس فيها مثلًا أحكام شرعية أمر أو نهي، وليس فيها قصص الأنبياء، والناس محتاجون إلى هذا، فلابُدَّ من قراءة القرآن، أما في الثواب فإنها تعدل ثلث القرآن ولا تجزئ عنه.

وفي الحديث الأخير الذي فيه قصة الرجل الذي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم على سرية، وكان يقرأ لأصحابه رضي الله عنهم في صلاتهم؛ قوله: «فيَخْتِم: بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾» يعني: يَخْتِم القراءة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وليس يختم الصلاة؛ بل القراءة، فإذا أتمَّ القراءة قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ وتقدَّم: أن الرجل الآخَر كان يفتتح القراءة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فهما قصتان وليستا قصة واحدة.

وقوله: «فَيَخْتِمُ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَالَ: «سَلُوهُ لأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ»؛ فأمرهم أن يسألوه، ولم يَدْعُه ليسأله، وهذه كما يقول العلماء قضية عين، لا نعلم لماذا لم يدعه ويسأله؛ إما لأنه يخشى من هيبة الرجل وذُعْرِه؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام مَهيب؛ لما دعا بالرجلين اللذين لم يصليا معه في مسجد الخَيْف في مِنًى، جيء بهما تَرْتَعِد فرائصهما، يتنافضان هيبةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، لكنه صلى الله عليه وسلم من رآه بداهةً يعني: في أول الأمر هابه، ومن خالطه عن معرفة أحبه عليه الصلاة والسلام، فهو قد أُحيط بالهيبة العظيمة، إلا أنَّ هذه الهيبة كَسُورِ الحديد، إذا دخلت وجدت الفسحة واللين؛ كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٦٠)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب فيمن صلى في منزله..، رقم (٥٧٥)، والترمذي: كتاب الصلاة، باب الرجل يصلي وحده ثم يدرك الجماعة، رقم (٢١٩)، والنسائي: كتاب الإمامة، باب إعادة الفجر مع الجماعة لمن صلى وحده، رقم (٨٥٨).

فقال: «لأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ» فَقَالَ: لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا»: في هذا دليل على: أن الإنسان إذا تعلَّق قلبه بالله، وأحب الله، فإنه يحب أن يقرأ من صفاته، وهذا هو مقتضى الفطرة، فأنت لو أحببت شخصًا من المخلوقين ألست تحب أن تراجع حياته، تقرأ في تأريخه؛ لأنك تحبُّه، فكذلك مَن أحب الله فإنه يحبُّ أن يقرأ صفاته جلَّ وعلا؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ»؛ لأنَّ مَن أحبَّ الله تعالى أحبَّه الله.

لكن أين صدق المحبة؟! كم مِن إنسان يقول: إنَّه يحبُّ اللهَ، لكن تجد قلبه مملوءًا بمحبة غير الله، أو تجد قلبه مُشطَّرًا؛ محبةً لله ومحبةً لغير الله، فينقُص إيمانه ويضعف، لكن إذا أحببتَ الله أحبَّك الله عز وجل، والجزاء مِن جِنس العمل.

فوائد الحديث:

١- جواز مثل هذا العمل، لكنه ليس بسُنَّة؛ بمعنى: أننا لا نقول للناس: اختموا بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ لتكونوا من أحباب الله؛ لأن هذا لو كان من السُّنَّة لكان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعله أو يأمر به، لكنه عليه الصلاة والسلام قد يُقِرُّ على الفعل من غير أن يَسُنَّه؛ كمثل هذا الفعل، ومثل ما ورد عن الصدقة على الأموات[1]، فقد أَقرَّ عليه، ولكنه لم يسُنَّه لأمَّته، ولولا أنه أقرَّ عليه لكان بدعة.

٢- وفي هذا أيضًا دليل على: إثبات محبة الله؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ»، ومحبة الله للعبد مرتبة عالية، لا ينالها إلا مَن أتى بأسبابها

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب ما يستحب لمن توفي فُجاءة أن يتصدقوا عنه، رقم (٢٧٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه، رقم (١٠٠٤/ ٥١).

من: الصبر، والتقوى، والإحسان وغير ذلك من أسباب المحبة، ويجمعها: اتِّباع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] فكلما كان الإنسان أشدَّ اتباعًا لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان أقرب إلى محبة الله تعالى.

وجَرِّب نفسك: لو أنك توضأت وضوءًا، والوضوء من العبادات، لكنه ليس أعلى العبادات، ثم شَعُرت وأنت تغسل وجهك، وتغسل يديك إلى المرفقين، وتمسح برأسك شعرت بأنك مُتَّبع للرسول عليه الصلاة والسلام لوجدت أثر هذا في قلبك، وأَثَّرَ عليك في زيادة الإيمان ومحبة الرحمن عز وجل؛ لذلك ينبغي لنا: أن نستشعر دائمًا بكل ما نتقرَّب به إلى الله تعالى أننا في ذلك متبعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حتى نَحصل على محبة الله ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

فإن قال قائل: عرفنا أن الطريق إلى محبة الله عزَّ وجلَّ هو: اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يكثر من العبادات؛ كالقيام، والصيام وغيرهما، ثم جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**اكْلَفُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ**»[1]؛ فكيف التوفيق بين هذا وهذا؟

فالجواب: أنَّ الاتِّباع ليس معناه: أن تفعل كما فعل سواء بسواء؛ بل اتِّباعه عليه الصلاة والسلام أن نهتدي بسُنَّتِه في التيسير في مَقام التيسير، وفي المشقَّة في مَقام المشقَّة وهكذا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم، رقم (٧٨٢/ ٢١٥).

أما كونه صلى الله عليه وسلم كان يقوم حتى تتفطر قدماه فهذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم، أما نحن فلنا دون ذلك من النوافل المُطْلَقة، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يفعل جميع نوافل العبادات دائمًا، لكنه كان يكثر من ذلك، وإذا اتَّبعناه فلا بأس، وكلما كان الإنسان أشدَّ اتباعًا كان أقوَى محبَّة، ولكن هذا يختلف من شَخْص إلى شَخْص، وفي الشَّخْص نفسه أيضًا، فربما يكون هذا العمل الصالح في وقت من الأوقات أفضل من غيره، وفي وقت آخر بالعكس؛ ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يُؤخِّر العبادات أحيانًا لأجل مصلحة أخرى، فقد أخرَّ الاعتكاف سَنَة من السَّنوات؛ لأن زوجاته أردن أن يتباهين بالاعتكاف، فأخَّره إلى شَوَّال، وأخَّر سُنَّة الظُّهر إلى ما بعد العصر، وأشياءَ كثيرةً من هذا النوع، وكذلك كان تمرُّ به الجنازة ولا يتبعها؛ لما يَرى مِن المصالح، فالدين الإسلامي والحمد لله دِين يُسر، ودِين شامل لكل المصالح.

ومحبَّة الله تعالى ليست ثوابه؛ بل الثواب من آثار المحبة، وعلى هذا فمَن فسَّر المحبة بالثواب فقد أخطأ؛ لأنَّ المحبَّة صفة في ذات الله عز وجل، والثواب مخلوق منفصل عن الله، وكذلك مَن فسَّرها بإرادة الثواب فقد أخطأ؛ لأنَّ المحبَّة أَمْر زائد على الإرادة، وإرادةُ الثواب مِن مقتضى المحبَّة، وليست هي المحبَّة، فأنت إذا أحببت ابنك -ولله المثل الأعلى- تريد أن تَنفعه وتَبرَّه، ثم تبرَّه، فهنا ثلاث مراتب:

أولـها: المحبة.

ثانيها: إرادة إثابته على هذا الشيء الذي أحببته من أجله.

ثالثها: نفس الثواب والمكافأة.

فكوننا نفسر الشيء بلازمه، أو بما يقتضيه هذا تحريف؛ لأنه تفسير لكلام الله بما لا يريده الله عز وجل؛ بل نقول: إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ مَحَبَّةً حَقِيقِيَّةً، وَنَسْأَلُ اللهَ جلَّ وعلَا أَنْ يُحَقِّقَ لَنَا جَمِيعًا ذَلِكَ.

وإرادة الثواب أو الثواب نفسه أمرٌ زائد عن المحبَّة، ولكنه مِن مقتضياتها.

٣- وفي هذا دليل على: جواز الاستنابة في سؤال الإنسان عن حاله، وكذلك إبلاغه العلم بالنيابة، وفي مثل هذه الأمور؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ»، وهذا أيضًا غَيْضٌ مِن فَيْضٍ؛ لأنَّ النُّصوص كثيرة في جواز الاستنابة في العلم تحصيلًا وتبليغًا.

* * *

بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ

٨١٤- وحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ بَيَانٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾**».

٨١٤- وحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ قَيْسٍ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُنْزِلَ -أَوْ: أُنْزِلَتْ- عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: الْمُعَوِّذَتَيْنِ**».

٨١٤- وحَدَّثَنَاه أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ. (ح) وحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ؛ كِلاهُمَا عَنْ إِسْمَاعِيلَ؛ بِهَذَا الإِسْنَادِ، مِثْلَهُ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي أُسَامَةَ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ، وَكَانَ مِنْ رُفَعَاءِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

---

[١] «المعوِّذَتَيْنِ» بالكسر؛ يعني: اللتين تُعوِّذ من استعاذ بهما؛ وهما: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

قوله صلى الله عليه وسلم فيهما لعقبة بن عامر رضي الله عنه: «**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ؟**» والاستفهام هنا: للتعجب والتفخيم؛ يعني: اعجب لهذه الآيات التي لم يُرَ مثلهن قط؛ يعني: لم يُرَ مثلهن في الإعاذة والاستعاذة بِهِنَّ، أما في المعاني الأخرى فقد سبق لنا: أن آية الكرسي هي أعظم آية في كتاب الله عز وجل.

وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾: أَوْرَد بعض الملاحدة على هاتين السورتين ونحوهما: بأنه مادام الله أمرنا أن نقول فلا حاجة لقول ﴿قُلْ﴾ وأن الإنسان يقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ برب الفلق، بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ برب الناس؛ وَرَأى: أن هذا من الزيادة المكتوبة التي لا تُقرأ!!

وهذا لا شك أنه إلحاد وكُفْر، وخُرُوج عن سبيل المؤمنين؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥] ولابُدَّ من قراءة: ﴿قُلْ﴾، والفائدة العظيمة منها: أنه إذا قرأ ﴿قُلْ﴾ استشعَر: بأن هذا مِن أَمْر الله، وأن الله هو الذي أَمَر بذلك، فيزداد بهذا ثقةً فيما يقرؤه، سواء هذه الآيات أو غيرها.

وأما اللفظ الثاني فقال صلى الله عليه وسلم: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: الْمُعَوِّذَتَيْنِ» كان المتوقع أن يقال: (المعوِّذتان)؛ لأنها عطف بيان على قوله صلى الله عليه وسلم: «آيَاتٌ» لكنها نُصبت على القطع؛ والتقدير: (أعني: المعوِّذتين)، وهو أبلغ -مما لو أُعربتا على أنهما عطف بيان- من وجهين:

الوجه الأول: أن الكلام إذا كان على نَسَق واحد فإن الإنسان يَنْسَجم معه ولا يتوقَّف ويتدبَّر، فإذا اختلف النَّسَق أوجب ذلك أن يتوقَّف، ويقال: لماذا صار على هذا الوجه؟! فيتدبَّر ويتأمَّل.

الوجه الثاني: أنه إذا قال: (أعني: المعوِّذتين) على سبيل الاستئناف دلَّ ذلك على: تفخيمهما وتعظيمهما، وأنهما استحقتا أن يُنصبا بعامل محذوف؛ هو: (أعني) وكما أنه بمعنى القصد فإنه يفيد: معنى العناية.

وبناءً على ذلك: ينبغي للإنسان أن يقرأ بهاتين السورتين حينما يُحسُّ بعدو يريده أو ما أشبه ذلك؛ حتى يتعوَّذ بهما؛ فإنه ما تعوَّذ أحدٌ بمثلهما أبدًا، حتى الأثر الذي فيه: أن الرجل إذا خاف قومًا قال: «**اللهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ**»[1]؛ هاتانِ السُّورتانِ أبلغ منه؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «**لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ**».

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٤١٤)، وأبو داود: كتاب الوتر، باب ما يقول إذا خاف قومًا، رقم (١٥٣٧).

بَابُ فَضْلِ مَنْ يَقُومُ بِالقُرْآنِ وَيُعَلِّمُهُ وَفَضْلِ مَنْ تَعَلَّمَ حِكْمَةً مِنْ فِقْهٍ أَوْ غَيْرِهِ فَعَمِلَ بِهَا وَعَلَّمَهَا

٨١٥- حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَمْرٌو النَّاقِدُ، وَزُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ؛ كُلُّهُمْ عَنِ ابْنِ عُيَيْنَةَ؛ قَالَ زُهَيْرٌ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ»[١].

---

[١] قوله صلى الله عليه وسلم: «لَا حَسَدَ» الحسد مذموم وممدوح؛ فأما المذموم فهو: أن يكره ما أنعم الله به على غيره، سواءً تمنَّى زواله أم لم يتمنَّ، إذا كره نعمة الله على غيره فهذا هو الحسد المذموم، كما حقَّق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وأكثر العلماء رحمهم الله يقولون: الحسد تمني زوال نعمة الغير -لكن ما ذكره شيخ الإسلام أدقُّ- يَعْنُون: المذموم، وهو من خصال اليهود، وفيه مفاسد عظيمة، ذكرناها فيما تقدم، فليرجع إليها.

والنوع الثاني من الحسد: أن يتمنى الإنسان مثل ما أنعم الله به على غيره، لا أن يكره ما أنعم الله به على غيره، أو يتمنى زوالها، وهذا التمني يختلف الناس فيه اختلافًا عظيمًا؛ منهم: من يتمنى أن يحصل له سيارة فخمة من السيارات المشهورة عند الناس، فهو يقول: ليت لي مثل هذه السيارة، فهذا الحسد ليس بشيء، ولا يُحْمَد عليه الإنسان، أو يتمنى أن يكون له مثل قَصْر فلان، أو بيت

فلان أو ما أشبه ذلك، وهذا أمر لا ينبغي أن يُغبط عليه من هو عنده، ولا أن يتمنى الإنسان مثله.

وإنما الحسد المحمود -الذي هو: تمني مثل ما عند الغير- هو في هذين الأمرين: عِلم نافع، أو مال نافع؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ...**»؛ «رجل» فيها لفظان: «رجلٌ» على القطع، و«رجلٍ» على أنها بدل من «اثْنَتَيْنِ»، أما البَدَليَّة فواضحة، وأما القطع «رجلٌ» فقد يُشكل عليه أنه نكرة، فكيف صح الابتداء به؟ والجواب على ذلك سهل؛ وهو: أنه يجوز الابتداء بالنكرة؛ كما قال ابن مالك رحمه الله:

وَلَا يَجُوزُ الابْتِدَا بِالنَّكِرَهْ ... مَا لَمْ تُفِدْ كَـ(عِنْدَ زَيْدٍ نَمِرَهْ)

فإذا أفادت جاز الابتداء بها، والفائدة هنا: أنَّ فيها التقسيم، والتقسيم مسوِّغ للابتداء بالنكرة؛ كقول الشاعر[1]:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرّ

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**آتَاهُ اللهُ القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**»؛ والمراد بإيتاء القرآن: ليس معناه: أن يقرأ لفظه فقط؛ بل آتاه اللهُ القرآنَ علمًا، وفهمًا، وعملًا؛ وعلى هذا فيشمل الدِّين كلَّه؛ يعني بذلك: العلم النافع الذي يقوم به الإنسان آناء الليل والنهار، وقيامه به ليس معناه: أن يتعبَّد لله به فقط؛ بل أن يتعبَّد لله به، ويعلِّمه الناس؛ لأن القرآن والسُّنَّة فيهما الحث على تعليم الناس الخير.

---

(١) البيت للنَّمِر بن تَوْلَب؛ ينظر: «ديوانه» (ص:٥٧).

والثاني قوله صلى الله عليه وسلم: «وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ» يعني: ينفقه فيما يُرْضِي الله عزَّ وجلَّ في سبيل الله؛ في الأقارب، وفي الفقراء، وفي غير ذلك من وجوه الخير؛ هذا هو الذي يغبط عليه الإنسان، وأما ما سوى ذلك فهو زائل، ولا غِبْطَة لمن حصل له؛ لأننا نعلم: أن هذا النعيم الذي حصل له من أمر الدنيا سوف يزول عن قرب؛ إما: أن يزول الإنسان عنه، وإما: أن يزول هو عن الإنسان، ومع ذلك فتجد الذين أوتوا شيئًا من الدنيا تجد غالبهم في نَكَدٍ وَهَمٍّ وغَمٍّ، كما هو معروف عند التجار بتتبعهم زيادات الأسعار ونقصانها في السلع، وما أشبه ذلك؛ ولا يعلم فيه غيرهم، وأشدُّ الناس همًّا وغمًّا وإثمًا مَن ينفقون أموالهم في اللهو والمحرمات.

المهم: أن الحسد المحمود هو: أن يتمنى الإنسان مثل ما أعطى الله غيره من النعم.

نقول: لا يحسد الإنسان أحدًا على شيء منه، أو لا يتمنى الإنسان مثله إلا في هذين الأمرين: علم نافع، أو مال نافع.

فإن قيل: الذي ينظر مثلًا إلى سيارة غيره ويتمنى أن له مثلها، إذا لم يتمنَّ زوالها، أو إذا لم يكرهها لأخيه فإن هذا ليس من الحسد المذموم ولا الممدوح، فهل نقول: إنه معفوٌّ عنه، أو أنه يذم؛ لأنه خالف نهي النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «لَا يَنْظُرْ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَوْقَهُ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ»[1]؟

فالجواب: أنه لا يقال فيه مخالف ولا مذموم؛ لأنه لا يريد أن يَزْدَرِي النعمة؛ لكن يريد: أن يتوصل إلى فوق مستواه الحالي.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، رقم (٢٩٦٣/ ٩).

وفَرْق بين الذي يَزْدَرِي نعمة الله عليه؛ كأَنْ يقول: أنا ما أعطاني ربي شيئًا! وأنا ما عندي شيء! أو أنا فقير! وما أشبه ذلك ممَّن ينظر إلى مَن فوقه، وبين إنسان مطمئِنٍّ بما أعطاه الله، لكنه يحب أن يزداد.

فإن قال قائل: بالنسبة للذي يتمنى أن يكون عنده من المال أو من الحكمة مثل فلان، فيصدق في نيته، هل يؤجر مثل فلان الذي تحقق له حصول المال والحكمة، وسلطه الله على هلكته في الحق؟

فالجواب: أنه يؤجر كأجره، وهذا هو حسد الغِبْطَة، وعكسه بعكسه تمامًا، ويُؤْزَر مثل وَزَر مَنْ أُعْطي مالًا وأنفقه في معصية الله؛ ويدل لذلك: حديث «**إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ...**»؛ فهذا قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: «**فَهُوَ بِنَيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ**»[1]، وهذا التمني نوع من الإرادة، والإرادة فوق الـهَمِّ.

***

٨١٥- حَدَّثَنِي حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ؛ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَالِـمُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ هَذَا الكِتَابَ فَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَتَصَدَّقَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**».

٨١٦- وحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ قَيْسٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ. (ح) وحَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، وَمُحَمَّدُ بْنُ بِشْرٍ؛ قَالا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: قَالَ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا، رقم (٢٣٢٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨).

رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»[١].

---

[١] هذا حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والأول: حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وكلاهما متقارِبان، لكن بعضهما يفسِّر بعضًا:

هنا يقول صلى الله عليه وسلم: «فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ»؛ إذن: يبذله في الحق لا في الباطل؛ والباطلُ يشمل: المحرَّم، وما لا خيرَ فيه؛ كما جاء في الحديث: «كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ ابْنُ آدَمَ فَهُوَ بَاطِلٌ؛ إِلَّا رَمْيَهُ عَنْ قَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتَهُ أَهْلَهُ؛ فَإِنَّهُنَّ مِنَ الحَقِّ»[١].

والثاني: يقول فيه صلى الله عليه وسلم: «رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»؛ الحِكْمة هنا: هي العلم، ورأس الحكمة في العلوم هو: علم القرآن.

وعلى هذا؛ فالحديثان متقاربان في المعنى وإن اختلفا في اللفظ.

***

٨١٧- وحَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ؛ أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى؛ قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا؛ قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ الله عز وجل، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالفَرَائِضِ؛ قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صلى الله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٤٤، ١٤٨)، والترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، رقم (١٦٣٧)، وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب الرمي في سبيل الله، رقم (٢٨١١).

عليه وسلم قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[١].

٨١٧- وحَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ إِسْحَاقَ؛ قَالا: أَخْبَرَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي عَامِرُ بْنُ وَاثِلَةَ اللَّيْثِيُّ؛ أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الحَارِثِ الخُزَاعِيَّ لَقِيَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ بِعُسْفَانَ؛ بِمِثْلِ حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ.

---

[١] هذا أيضًا يدلُّ على: فضل الكتاب العزيز، وأن الله يرفع به أقوامًا ويضع به آخرين، والأقوام المرفوعون به هم مَن اتَّبعوه؛ فإن الله يرفعهم به، قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤].

ويضع به مَن لم يَقُم به؛ أعني: من لم يرفع به رأسًا، ولم ير بمخالفته بأسًا، ولا يهتم به، ولا يلتفت إليه، ويقول والعياذ بالله: هذا أساطير الأولين، هذا يُوضع به، وإن قُدِّر أنه ارتفع في يوم من الأيام فإن مآله إلى الضعف والنزول والسُّفُول.

ويشهد لهذا: أن مولًى من الموالي خُلِّف ليكون أميرًا على أهل مكة، والمولى يعني: المُعتَق، الذي كان عبدًا ثم أعتق، صار أميرًا على أهل أم القرى؛ ولذلك قال عمر لنافع رضي الله عنهما: «فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟!» يعني: كيف تستخلف عليهم مولًى؟! والجملة هنا استفهامية؛ أي: أستخلفت عليهم مولى؟! قال: «إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ الله عز وجل، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالفَرَائِضِ»؛ والقارئ لكتاب الله في عهدهم ليس كالقارئ في عهدنا، القراء في عهدنا كثير؛ منهم: أميون، لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ؛ أي: قراءة، وقد سمَّى الله الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ سماهم أُميين؛ فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] لكن القارئ

في عهدهم عالم، فقد كانوا لا يتجاوزن عشر آيات حتى يتعلموها، وما فيها من العلم والعمل، فكانوا قُراء علماء.

فإن قال قائل: من المعلوم أن السلف رحمهم الله كانوا يفرِّغون أنفسهم في رمضان للقرآن، فهل الأولى في مثل أحوالنا الآن أن يفرِّغ الإنسان نفسه، ويقرأ مثلًا جزءًا كبيرًا من التفسير، أو يتدارس آياتٍ مع إخوانه ولو اقتصر على جزء يسير؟

فالجواب: أن الأولى أنه يجمع بينهما، والإنسان إذا تدبَّر القرآن فهو يسير سهل؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧] فربَّما أنَّ مَن قرأ سورةً وتدبَّرها لا يحتاج إلى التفسير، اللهم إلَّا في أسباب النزول أو ما أشبه ذلك.

وقوله رضي الله عنه: «وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالفَرَائِضِ» والمراد بالفرائض: فرائض الله، وليست العِلْم المعهود؛ لأن العلم المعهود لا يُشَكِّلُ إلَّا شيئًا يسيرًا بالنسبة لما يحتاجه الناس في الولاية، وإلاَّ فلا شك أن العلم الذي هو فقه المواريث لا شك أن الخليفة يحتاج إليه، وكذلك الأمير يحتاج إليه، لكن هذا جزء يسير بالنسبة لما يحتاج إليه في ولايته، فالمراد بالفرائض يعني: حدود الله وفرائضه، سواءً عِلْمَ الفرائض أو غيره.

ثم قال عمر رضي الله عنه: «أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»؛ «نَبِيَّكُمْ» هل هو: (نبي لنا)، أو (نبي لله)؟

الجواب: هو (نبي لله) باعتبار أنه أرسله، و(نبي لنا) باعتبار أنه مُرْسَل إلينا؛ ولهذا يضاف إلى الله أحيانًا، ويضاف إلينا أحيانًا أخرى.

***